

الأساس البشري للمرابطين: صنهاجة الصحراء

- الأصل والتسمية:

ينتمي المرابطون إلى الفرع الثالث من البربر الأمازيغ وهم صنهاجة، لكن النسابة يميزون داخلها بين فرعين: صنهاجة (الشمال) التي تقيم في المناطق الشمالية بجبال فازان والريف والقبائل، وصنهاجة الصحراء؛ وهذه هي التي تهمننا، التي تقيم في الجنوب المغربي والصحراء الكبرى. ويوضح ابن خلدون أن هؤلاء من الجيل الثاني من صنهاجة.

يسمون أيضا بالملثمين لأنهم يتخذون اللثام زيا لهم. وقد اختلف في سبب اتخاذه، فقيل إن سبب ذلك عائد إلى محاولة إخفاء أفواههم لأنها مصدر العار والقبح (يلاحظ هذا الأمر حتى الآن عند المغاربة)، أو لكثرة العواصف في الصحراء واشتداد الحر بها فاتخذوا وقاية منها؛ وهذا الأرجح، وقيل إن مخيماتهم تعرضت لهجوم في غياب الرجال فوضعت النساء ألثمة وقاتلن العدو وهزمنه وتجنبن السبي والعار، فصارت صنهاجة منذ ذلك الوقت تتبرك به وتلتزم بحمله. وقد نسجت قصص كثيرة حول تشبثهم به حتى إنهم يقدمون تغطية محل اللثام (الوجه) على ستر العورة. ويقتصر اتخاذه على الرجال دون النساء.

وتتكون صنهاجة الصحراء من قبائل وعشائر كثيرة بلغ عددها عند البعض سبعين قبيلة، وأهمها: لمتونة وجدالة ولمطة ومسوفة وزغاوة وبنو وارث وبنو ينتسر ...

2-الموطن:

تحتفظ المصادر بمجموعة من النصوص حول تحديد مواطنهم تختلف في بعض التفاصيل، لكنها تتكامل في الأخير لتحدد بشكل تقريبي. فصاحب "الحلل الموشية" (الحل 17) يحددها كما يلي:

"ومراحلهم في الصحراء مسيرة شهرين في شهرين، ما بين بلاد السودان وبلاد الإسلام"

ويحدد البكري أكثر فيقول:

"ومراحلهم في الصحراء مسيرة شهرين في شهرين، ما بين بلاد السودان وبلاد الإسلام، ويصيفون في موضع يسمى أمطلوس وآخر يسمى تاليوين وهم إلى بلاد السودان أقرب، بينهم وبين بلاد السودان نحو عشر مراحل" (المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب" ص. 164)

ومن خلال النصين يتضح أن مواطن صنهاجة تقع في القسم الجنوبي الغربي من الصحراء الكبرى، وهو ما يوافق الأراضي الموريتانية.

ويوسع ابن أبي زرع المجال أكثر فيقول:

"وهذه القبائل كلها صحراوية، حوز بلادهم في القبلة مسيرة سبعة أشهر طولاً ومسيرة أربعة أشهر عرضاً، من نول لمطة إلى قبلة القيروان من بلاد إفريقية، وهي ما بين بلاد البربر وبلاد السودان" (الأنيس المطرب، ص.120)

وبهذا تتجاوز موطنهم الجزء الغربي من الصحراء الكبرى لتمتد من المحيط الأطلنطي إلى جنوب إفريقية (تونس الحالية).

ويزيد ابن خلدون المجال اتساعاً فيصل ببلادهم إلى الجنوب الليبي:

"المثمنون الموطنون بالفقر وراء الرمال الصحراوية بالجنوب (...) فنزلوا من ريف الحبشة جواراً، وصاروا ما بين بلاد البربر وبلاد السودان حجازاً (...) كلهم ما بين البحر المحيط بالمغرب إلى غدامس من قبلة طرابلس وبرقة" (ابن خلدون ج6 ص.241)

وبهذا التحديد تصير مواطن صنهاجة ممتدة على كل الأجزاء الجنوبية من الصحراء الكبرى من المحيط إلى الحدود المصرية. لكن القبائل التي تهمنا تقيم في الأجزاء الغربية وهو ما يوافق الأراضي الموريتانية الحالية، إذ تقيم لمتونة وسط البلاد بينما تقيم جدالة إلى الجنوب منها وصولاً إلى نهر السنغال.

3- نمط العيش:

وبالرغم من قلة النصوص حول نمط عيشهم فإن ما يتوفر يساعد على رسم صورة تقريبية، فالبكري يكتب عنهم "وليس يعرفون حرثاً ولا زرعاً ولا خبزاً إنما أموالهم الأنعام وعيشهم من اللحم واللبن ينفذ عمر أحدهم وما رأى خبزاً ولا أكله إلا أن يمر بهم التجار من بلاد الإسلام أو بلاد السودان فيطعمونهم الخبز ويتحفونهم بالدقيق" (البكري ص.164) وينقل ابن أبي زرع هذه المعلومات عنه مع بعض التغيير (الأنيس ص.120)

كما يضيف صاحب "الحلل الموشية" معلومات أخرى في هذه الجملة القصيرة "وهم
ظواعن في الصحراء، رحالة لا يطمئن بهم منزل، وليس لهم مدينة يأوون إليها" (الحلل
(17

وكما يفهم من النصين فحياة صنهاجة تقوم على الترحال والتنقل المستمر خلف قطعان
الماشية من الجمال والأغنام والماعز وبعض الدواب خاصة الحمير. وينظمون رحلتين
موسميتين في الصيف والشتاء، إما في اتجاه الشمال (المغرب الأقصى) أو في اتجاه
الجنوب (حوض نهر السنغال)، كما يحصل حاليا في موريتانيا. وتقوم معيشتهم على اللحم
المشوي أو المقدد والحليب وبعض المواد الأخرى من حبوب وتمور يحصلون عليها من
عمليات تبادلهم مع المستقرين والتجار الذين يمرون ببلادهم. كما لا يستبعد أن يكون الغزو
إلى القبائل السودانية بشكل موسمي أحد الموارد الاقتصادية لهذه القبائل.

4- إسلام صنهاجة:

الحقيقة أننا لا نملك معلومات دقيقة عن تاريخ دخول الإسلام إلى صنهاجة، فهناك من
يجعل إسلامهم مبكرا جدا ويقول إن إسلام بعضهم يعود إلى عهد عقبة بن نافع، وربما وقع
هؤلاء في خلط بسبب نسبة الفهري فخلطوا بين عقبة وحفيده عبد الرحمن الذي سنذكره
بعد قليل. وأما ابن خلدون فيقول إن إسلامهم تم بعد فتح الأندلس (ج 6 ص. 241)؛ أي بعد
عام 95هـ/714م، وهذا كلام معقول إذا ربطناه بكون الولاة الأمويين؛ وخاصة عبيد الله
ابن الحبحاب، عملوا على غزو بلاد السودان انطلاقا من جنوب المغرب الأقصى. كما أن
روايات تقول إن عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبدة الفهري (حفيد عقبة ابن نافع) بعد
سيطرته على حكم بلاد إفريقية عام 127هـ اخترق الصحراء ونشر الإسلام في أوساط
صنهاجة الصحراء. وبذلك نرجح أن الإسلام وصل إلى صنهاجة في عهد الولاة دون أن
نستبعد أن يكونوا قد تعرفوا عليه أثناء حروب الفتح.

5- تنظيمهم السياسي:

ولا نعرف شيئا عن تنظيمهم السياسي عدا ما أورده ابن أبي زرع ونقله عنه ابن خلدون.
فقد أعاد ظهور تنظيم سياسي عندهم إلى القرن 2هـ/8م، وكان أول ملوكهم في الصحراء
تلاكاكين الصنهاجي اللمتوني الذي عاصر عبد الرحمن الداخل وتوفي عام 222هـ بعد
حكم حوالي 80 سنة، وكان ملكه عظيما. وخلفه حفيده الأثير بن فطر بن يتلوتان حتى

وفاته (ت287هـ بعد حكم 65سنة)، وقام مقامه ولده تميم إلى أن ثارت عليه صنهاجة عام 306هـ/918م، فافتقرت كلمتهم لحوالي 120 سنة، إلى أن قام فيهم محمد بن تيفاوت المعروف بتارشا اللمتوني الحاج الفاضل الدين المجاهد فجمعهم لمدة ثلاث سنوات ثم استشهد في غزاة إلى بلاد السودان فخلفه صهره يحيى بن إبراهيم الجدالي عام 129هـ وعلى يده استبدأ الدعوة المرابطية.

وخلاصة الكلام فقد تشكل الأساس البشري للمرابطين من صنهاجة الصحراء البدو ساكني الصحراء الكبرى في مجاورة بلاد السودان، رعاة النعم المتقشفين الأشداء.